فلسفة الزواج في الإسلام

قالت الأستاذة وهيبة : نرحِّب بالأستاذ نبيل مع أنه ليس غريباً إنما صاحب بيت، ولقد اختار موضوع " فلسفة الزواج في الإسلام " ليكون موضوع هذه المحاضرة فليتفضل ، وأنتن تعرف آداب المحاضرة فأرجو التزام الهدوء فالعدد كبير ، وعدم مقاطعة الأستاذ نبيل حتى ينتهي من كلامه ، ومن لها سؤال تكتبه في الورق الذي سيوزع عليكن .. تفضل يا أستاذ نبيل .

– الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﴿ ... سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ﴾ [البقرة:٣٢] هذا موعد ندوتنا الشهرية التي أسعد بها كثيراً ، ولقد اتفقت مع الأستاذة وهيبة على أن تكون عن " فلسفة الزواج في الإسلام " فلقد قالت لي إحدى الطالبات في مَعْرِض انتقاص الإسلام من شأن المرأة : " لماذا لا تُزوج المرأة نفسها إلا بولي ذكر.. ويجوز أن يتزوج عليها زوجها مثنى وثلاث ورباع وليس لها حق الاعتراض.. وإذا رفضت المرأة معاشرة زوجها باتت والملائكة تلعنها ؟ " .

الزواج فطرة إنسانية

الزواج أمر فطري مستقر في إحساس وشعور الرجل والمرأة؛ كل منهما يبحث عن الآخر. ومهما توفَّر للرجل والمرأة من المأكل والمشرب والراحة الجسدية، فإن ذلك لا يغني أحدهما عن البحث عن شريكة وبالزواج يكثر عدد أفراد الجنس البشري وتعمر الأرض وتخرج خيراتها، وتبني ديارها، وتسير الحياة. ولقد راعى الإسلام ذلك وسما بالزواج عن الحيوانية ووضعه في مكانه اللائق؛ فشرع اتصالاً كريماً بين الرجل والمرأة، يعلي من قدرهما، ويناسب كرامة الإنسان، وأفضليته على

المخلوقات، وعظَّم الإسلام شأن الزواج، وبيَّن أثره البالغ في أكثر من موضع في الكتاب والسنة:

١- الزواج ، عند المسلمين، آية من آيات الله في خلقه، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم :٢١]

مقارنة بين الزواج والزنا

أما الزنا والسفاح فهو آية من آيات الشيطان لإيقاع الشقاق بين الناس والبغضاء ولذا حرمه الله في كل ملّة ودين ﴿وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام:١٥١] فإن الفِطَر السليمة تأباه ، جميع المسلمين إلا عدداً لا يُذْكَر منهم لا يرضونه على أهلهم إناثاً وذكراناً لا يرضونه على : أبويهم ولا أخوتهم ولا أزواجهم ولا أبنائهم ولا أحداً ممن يحبونهم .

وإن ارتكب أحد هذه الفاحشة يعلم أنه ارتكب كبيرة وإثماً عظيماً ولكنه لا يستحلها ، والفرق بين من يفعل المعصية وهو مؤمن بحرمتها ويندم على فعها وبين من يستبيحها وينكر حرمتها هو الفرق بين المسلم والكافر .﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد:٩] .

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ إِنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ قَالُوا مَهْ مَهْ فَقَالَ ادْنُهْ فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا قَالَ فَجَلَسَ قَالَ أَتُحِبُّهُ لأُمِّكَ قَالَ لَا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ قَالَ وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لأُمَّهَاتِهِمْ قَالَ أَفَتُحِبُّهُ لابْنَتِكَ قَالَ لا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ قَالَ وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ قَالَ أَفَتُحِبُّهُ لأُخْتِكَ قَالَ لا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ قَالَ وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لأَخَوَاتِهِمْ قَالَ أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ قَالَ لا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ قَالَ وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ قَالَ أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ قَالَ لا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ قَالَ وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالاتِهِمْ قَالَ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ وَطَهِّرْ قَلْبَهُ وَحَصِّنْ فَرْجَهُ فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ

ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ " [صححه الألباني] وأنا أتوجه لله الغفور الرحيم أن يغفر لنا ذنوبنا وأن يطهر قلوبنا وأن يحصن فروجنا إنه ولي ذلك والقادر عليه .

يقول تعالى مرغباً في الزواج ناهياً عن الزنا والسفاح ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالمُحْصَنَاتُ مِنَ المُؤْمِنَاتِ وَالمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآَخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ [المائدة:٥] فكما شرط الإحصان في النساء –وهي العفة–عن الزنا كذلك شرطها في الرجال وهو أن يكون الرجل أيضاً محصناً عفيفاً؛ ولهذا قال: ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ وهم : الزناة الذين لا يرتدعون عن معصية، ولا يردُّون أنفسهم عمن جاءهم﴿وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ أي: ذوي العشيقات الذين لا يفعلون إلا معهن.

٢– الزواج ضرورة حياتية؛ فهو الأسلوب الذي اختاره الله للتوالد والتكاثر؛ واستمرار الحياة : ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء:١] .

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ﴾ [النحل: ٧٢] .

وأبناء الزنا إما أن يُلْحقوا بغير آبائهم تدليساً أو يُلْقى بهم في الملاجئ أو أمام المساجد أو يوأدون في الأرحام أو بعد ميلادهم ؛ فأبناء الزنا عار يدنس الأم ويجلب الذل والهوان لكل الأهل والأصدقاء ، والأبناء الشرعيون فخر للأم ومصدر فرحة وبهجة لأبويهم ولكل الأهل والأصدقاء .

٣– تلبية الرغبة الطبيعية المستقرة في الرجل والمرأة التي جعلها الله عز وجل لكمال الحياة البشرية وإيجاد نفس أخرى يسكن إليها الرجل، ويأوي إليها ويبثها شكواه وحزنه، ويطلعها على ما في نفسه لتخفف عنه، وتواسيه وتسليه، ويجد

الراحة التامة بذلك، ومن أجل كمال هذا الارتباط جعل الله بين هاتين النفسين مودة ورحمة.

والزناة لا مودة بينهم ولا رحمة ولا كرامة إنما هو امتهان للنفس وأقسى أنواع القسوة خاصة بالنسبة للمرأة .

٤- والزواج في الإسلام تمام الدين، وطهارة النفس والبدن وحفظ السمعة، حيث تعف الرجل زوجته، ويعفُّها، ويجد بها متنفساً لشهواته، فلا يفكر في مقاربة المعاصي. ويقول رسول الله ﷺ مَنْ رَزَقَهُ الله امْرَأَةً صَالِحَةً فَقَدْ أَعَانَهُ الله عَلَى شَطْرِ دِينِهِ فَلْيَتَّقِ الله فِي الشَّطْرِ الْبَاقِي." [رواه الحاكم وصححه] والزنا فساد للدين ودنس للنفس والبدن وإساءة للسمعة .

٥- الزواج يربط بين الأسر، ويقوي أواصر المحبة في المجتمعات الإنسانية ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنْ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾[الفرقان: ٥٤] والزنا يهدم البيوت ويوقع الشقاق والفرقة بين الزوجين فالرجل كريم النفس لا يقبل أن يعيش من زوجة زانية غير أمينة على شرفه ولا أولاده ولا بيته ، وأي حب وإخلاص ينشأ في قلب رجل خائن أو امرأة خائنة يستبدل اللحم النتن باللحم الطيب ؟!

٦- والزواج فيه تكثير الأمة، وحفظها من الزوال، ولذا قدَّم كثير من العلماء أحكام الزواج، في مؤلفاتهم، على أحكام الجهاد. والزنا ضياع للنسل وللأسرة وللمجتمع لذا جعله الله تعالى كالنبتة الخبيثة يجب أن تجتث من الأرض حتى يصلح الزرع الطيب فجعل حد الزاني والزانية المتزوجين الرجم حتى الموت " الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا الْبَتَّةَ نَكَالاً مِنَ اللَّهِ" [متفق عليه] .

والزواج هو السبيل الأمثل لإعفاف كل واحد من الزوجين نفسه وإحصانها، حتى لا يقع في المحرم أو يسلك مسلكاً خاطئاً في قضاء الشهوة، واستمتاع كل واحد من الزوجين بالآخر، استمتاعاً أحله الله لعباده، وفي الحديث عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ " الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ" [صحيح مسلم] القرآن الكريم: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [النساء: ٢٤]

في نظام الزواج يتحقق اختصاص الرجل بالمرأة، واختصاص المرأة بالرجل على نحو يليق بالإنسان وكرامته، وعلى نحو لا يوجد في عالم الحيوانات، ومن آثار هذا الاختصاص إيجاد النسل الثابت النسب منهما، وما يتبع ذلك من رعاية مادية ومعنوية لهذا النسل من قبل الزوجين، فينشأ هذا النسل سوياً خالياً من الشذوذ والانحراف، بخلاف أولاد الزنا الذين يرفضهم المجتمع ولا يعترف لهم بنسب، ولا يجدون حنان الوالدين ولا رعايتهما، وبهذا وضع الإسلام للغريزة سبيلها المأمونة، وحمي النسل من الضياع، وصان المرأة عن أن تكون كلأ مباحاً لكل أحد.

والزواج سبيل لاكتمال خصائص الرجولة والأنوثة عند الرجال والنساء، فكثير من الخصائص تكتمل وتتحقق في ظلال الحياة الزوجية، ومنها العواطف النبيلة، التي يشعر بها كل واحد من الزوجين تجاه الآخر، ومنها مشاعر الأبوة والأمومة، ومشاعر العطف والحنان، والشعور بالمسئولية التكاملية مع الطرف الآخر وفهم طبيعة مشاكل الناس وكيفية إيجاد الحلول المناسبة.

لماذا لا تزوّج المرأة نفسها ؟

المرأة في الإسلام لا تزوِّج نفسها إنما يزوجها وليها بموافقتها .

وهذا الشرط فيه حماية للمرأة وحقوقها من خداع الزوج لها؛ فموافقة وليها (أبوها) وهو أكثر الناس حباً لها ورغبة في إسعادها أمر ضروري للفتاة فقد تقع – وكثيراً ما يحدث هذا – في حب شاب غير مناسب لها ولا كفء فيكون هنا دور الأب الحريص على سعادة ابنته فيبين جوانب الضعف التي خفيت على الفتاة الواقعة تحت تأثير حب هذا الشاب فـ "حُبكَ الشيء يعمِي وَيُصِمُّ" كما روي عن النبي ﷺ وكما يقول العامة " مراية الحب عمية " والأمثلة أكثر من أن تحصى على ذلك فالزواج لا يُبْنَى فقط على عاطفة الحب إنما لا بد من الكفاءة بين الزوجين لدوام العشرة واستمرار الزواج .

وإذا كانت المرأة لا تستطيع أن تزوج نفسها إلا بموافقة وليها فوليها لا يستطيع أن يزوجها إلا بموافقتها كذلك ، والمنطق والواقع يؤكدان أنه إذا توافق الأب وابنته

على زوج فعوامل نجاح هذا الزواج كبيرة ، أما إذا اختلفا وأُكْرِه أحدهما على النزول على رغبة الآخر فإن عوامل نجاح هذا الزواج سوف تتضاءل .

ومن مصلحة الزوجة رضا الأب عن الزواج فهو الأب الذي يجهزها بجهازها ويسعد بفرحها ويدعو لها بالرفاء والبنين ويعمل له الزوج ألف حساب ، وإذا وقعت أية مشاكل سارع الأب بالإصلاح والتوفيق فهو حصن ابنته إن حدث عليها اعتداء أو وقع عليها ظلم .﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء:٣٥] فالزوجان ، خاصة في بداية الزواج ، يكونان قليلي الخبرة وكثيراً ما يقع بينهما الخلافات التي لا يستطيعان حلها بمفردهما فهنا يتدخل أولياء الأمور للإصلاح وإعادة الوئام ، فما حال الفتاة التي تزوجَّت رغماً عن إرادة أبيها أو أرغمته على الموافقة إذا حدث خلاف كبير بينها وبين زوجها فلمن تلجأ ؟ وأي بيت سيحتضنها ؟ وبالطبع قد سمعت كثيراً عن مآسي الفتيات اللاتي هربن من أهلهن وتزوجن من أحببن .

وقبل أن أتحدَّث عن موضوع لعن الملائكة المرأة التي تمتنع عن زوجها نجيب عن بعض الأسئلة التي وصلتني .

لماذا لا يحل للمرأة المسلمة الزواج من غير مسلم ؟

سؤال تقول صاحبته : " لماذا لا يحلُّ للمرأة المسلمة الزواج من يهودي أو مسيحي بينما يحلُّ ذلك للرجل المسلم ؟ " .

– الزواج في الإسلام يقوم على " المودة والرحمة " والسكن النفسي . ويحرص الإسلام على أن تبنى الأسرة على أسس سليمة تضمن الاستمرار للعلاقة الزوجية، والإسلام دين يحترم كل الأديان السماوية السابقة ويجعل الإيمان بالأنبياء السابقين جميعًا جزءاً لا يتجزأ من العقيدة الإسلامية. وإذا تزوَّج مسلم من مسيحية

أو يهودية فإن المسلم مأمور باحترام عقيدتها ، ولا يجوز له ، من وجهة النظر الإسلامية ، أن يمنعها من ممارسة شعائر دينها، والذهاب من أجل ذلك إلى الكنيسة أو المعبد.

وهكذا يحرص الإسلام على توفير عنصر الاحترام من جانب الزوج لعقيدة زوجته وعبادتها. وفى ذلك ضمان وحماية للأسرة من الانهيار.

أما إذا تزوج غير مسلم من مسلمة فإن عنصر الاحترام لعقيدة الزوجة يكون مفقودًا ؛ لأنه لا يؤمن بنبي الإسلام، ولا يعترف به ؛ لذا المسلمة لا تأمن على دينها ولا ممارسة شعائره إلا مع من يؤمن به ، كما أن الأولاد يتبعون دين أبيهم فكيف تربي المسلمة أولادها على عقيدة غير عقيدتها وعلى أفكار تخالف دينها ؟!

وهذا الحكم لم يتفرد به الإسلام بل تشاركه فيه الديانات السماوية الأخرى ، فاليهودية لا تتزوج إلا يهودي ، واختلاف الدين مانع من الزواج في المسيحية .

على أننا ننبه هنا إلى أن زواج المسلم بالكتابية ، وإن كان مباحا في الشرع ، فإنه " مستثقل مذموم " كما قال الإمام مالك رحمه الله .

ماذا تفعل الفتاة إذا أراد أبوها أن يزوجها ممن لا تحب ؟

سؤال آخر تقول صاحبته : " إذا كان الأب رجلاً ظالماً ويريد أن يكره ابنته على الزواج ممن لا تحب فماذا تفعل ؟ " .

والحقيقة أن الأب لا يملك أن يكره ابنته على الزواج ممن تكرهه ، وأن وقع فالزواج باطل " زواج عتريس من فؤادة باطل .. باطل .. باطل " .

ضحكت الطالبات وأكمل الأستاذ : وإن أراد أن يحرمها من زوج كفء مناسب وتسلَّط في استخدام سلطته فلها أن ترفع أمرها للقاضي الذي إذا تبين أن الأب قد عَضَلَها وحرمها من الزواج بكفء الذي يعطيها مهر المثل زوجها هو ، أو زوَّجت نفسها على مذهب أبي حنيفة الذي يبيح أن تزوج المرأة نفسها بشرطين : أن تتزوج بكفء ، وأن يكون لها مهر المثل .

فبالله عليكن هل جار الإسلام على المرأة أم صانها وحافظ على حقوقها وأكرمها ؟

والآن نتحدث عن حديث لعن الملائكة المرأة ...

- أنا آسفة يا أستاذ نبيل لا بد ان ننهي المحاضرة فالحصة الرابعة قد انتهت والفسحة كذلك وبدأنا في الحصة الخامسة لنؤجِّل هذا الموضوع لمحاضرة أخرى.
- كما ترين .
- نشكر الأستاذ نبيل ، وإن شاء الله نلتقي على خير في المحاضرة القادمة .

***